قصة

قصة « سجل ! »

— ١ —

يسر المتلطف أن تقدم الى قرائها هذه التحفة الادبية الخالصة، وهي قصة من قلم الدكتور بشر فارس صاحب مسرحية « مفرق الطريق » . وهذه القصة من مجموعة قصص تخرج بعد أيام قلائل في مجلد بعنوان « سوء تفاهم » (مطبعة المعارف ومكتبتها) ، وقد رغبنا الى المؤلف ان يخص المتلطف بما كورة من المجموعة

وهذه القصة وأخواتها قد تحير القارىء أحيانا أكما حيرته « مفرق الطريق » وذلك لطرافة الموضوعات وجدة المعالجة . ولهذا يحسن بنا أن ننقل الى القراء زبدة حديث سمح به المؤلف الى زميلتنا « للكشوف » البيروتية (العدد ٣٣٢ — ٢٤ أكتوبر ١٩٤١) قال الدكتور بشر فيما قال :

« القصة عندي حبة تنتزع من صدر الحياة لا قطعة من الحياة كما يرى القصاصون غالباً . يجب ان تكون كبرق يلتوي في سماء مقمرة . السماء المقمرة هي الحياة الجياشة ، وهي مظلم من حيث دقائقها ومن حيث أسرارها . فالقصاص هو الذي يستطيع ان يطلع في لمحة على سر من هذه الاسرار او دقيقة من هذه الدقائق ليدونه . ويجب ان تنطوي القصة على شاعرية في الاداء المتقطع وفي التصوير على الخصوص ، وعلى عمق في تحسس الدقائق النفسانية عملية بسيطة جداً قائمة على حادث تافه ، على كلمة عابرة ، على شعور يختلج ، مع اجتناب التحليل المنطقي أو العلمي . ولا أشك ان طائفة من الكتاب الاجانب الذين تخرجنا عليهم وحاولنا النسج على منوال قصصهم أضروا بنا كثيراً من حيث توجيهنا للتحليل . . . (يريد صاحب الحديث القصاصين الفرنسيين)

« ومعيار الانشاء الرفيع ان يجعل المنشيء القارىء يشاطره فنه ، ولن يشاطره إلا اذا مر بالتجربة التي مر بها المنشيء ولم يستطع ان يفصح عنها . واما اذا أفصح المنشيء عن التجربة فقد قبض عليها القارىء وتفهمها وتذوقها . وهذه هي غاية القارىء التي تخيب غاية المنشيء »

وهنا زاد كاتب الحديث : « وصارحني الدكتور بشر انه لا يكتب لمن يريد ان يقرأ في سبيل المتعة العابرة ، او ساعة يمضيه التمس ، انما يكتب لمن يجب ان يشاركه فنه ولا يخشى ان يعمل فكره . . . القصة ليست قصصية ، يجب ان تثير القارىء » . وهو يرى ان القصة لا تحتاج الى حبكة ، بل يجب ان تكون كالرسم الحديث . . . يجب ان تكون القصة جملة في لوحة الحياة الخارجية ، وقد كان على القصصي ان يكون انسانا قبل كل شيء فمن حقه ان يعطف على التجربة البشرية وان يمس صميم الحياة . كل ذلك في دوران أدبي فني . . . ويستطيع المنشيء ان يتصرف في بطل القصة الى الامام ، على ان يكون تحليله طريفا . وهو يستطيع ان يطلق ما يشاء على ان يكون مختصاً

ذلك محل رأي الدكتور بشر صاحب الشخصيتين إذ هو أديب متعرف الى الادب المتأنس وحالا متقطع الى العلم المحض . وهو يخرج لنا اليوم مجموعة روائع لا نشك في أنها ستحدث ما تحدث على نمط ما سبقها من تآليف هذا الكاتب القوي

وقد سألنا صديقنا الدكتور بشر : ما وراء عنوان قصتك ؟ فتحكرنا بجملة وردت في « مفرق الطريق » على لسان « هو » يقولها لبطلة « سيرة » والجملة : « علمتني اليوم ان الحياة بمجموعة سوء تفاهم »

[المحرر]

— ٢ —

لماذا يحاول الانسان دائماً ان يستوضح الغامض ويهتك أستار المجهول ؟

ولماذا ، وقد تطاول في محاولته على مرقى أبواب ما وراء الطبيعة ثم باء بالفشل ، يعاود محاولته من جديد ؟ ؟

ولماذا يفشل ؟ ؟ وهل هناك علاقة بين فشله وبين العناصر التي ركبتها الطبيعة فيه ، وهي وسائله في محاولته وجهاده ؟ ؟

بعض من أسئلة تثيرها هذه القصة الطريفة للقصة ، ولا نبخل عليها بجواب ! !

استكناه الغامض والمجهول مما يحيط بنا ، ثم قتلنا في تحقيق ذلك اذا تذف بنا الطموح الى استجلاء ما هو خارج عن محيطنا الارضي وطائل بالسماء ، ما الدور الذي تدور عليه هذه القصة ، كما دارت عليه ، ومن غير نهاية ، روائع من الشعر والمسرحيات والقصص ، منذ ان اتخذ الذهن الانساني الادب وسيلة للتعبير عما يختلج بالنفس ويستبد بالخاطر ، وهما من مباعث للأسى الذهنية التي أنشأت الطروس منها نفائس الادب وطرائف الاتجاهات الفلسفية

خلق الانسان ، ما أعجبه ! !

طموح لا يتطامن ، وتطلع لا يهدأ الى المعرفة ، وتوثب لا يني عن إجابة نداء الغامض المجهول ، ثم قصور في عناصر الذهن وروابط التفكير وهن وأعضاء الجسم وعجز في الوسائل : فيالك عجيبان ، بين ضراتين يبدأ في نزاع ، فكأنما قضي على الانسان ان تبين قدماه راسختين في الارض ورأسه مترنماً الى السماء لي تتوقف . هو يريد التعليق ولا يستطيعه ، ويهم بهتك المحجب ولا يدركه ، فاذا دمه طموحه الى التعليق والخروج عن محيطه الارضي فالجاذبية والعذاب له بالمرصاد ، وحيثما ركب فيه ، وعذابه مما جبلت عليه نفسه : للذلة يقتله بشر ، وللتعاظم الذاتي تنتك به ذبابة أو تزل به قدم فيردى !

عقدة النقد وأحجية الاخلاقي . . .

صاغ منها (بشر فارس) قصة ، وأية قصة ، جرى فيها فنه مبتدعاً لاتباعاً ، وفي سياقة محكمة وأسلوب مترع بالنعمات الفنية والاشراقات الذهنية ، فياض بالطبع القوي للفعل

وإن القصة لتنتهي ، وإن الكتاب ليطوى ، وتبقى العقدة ماثلة من غير حل ، تراود خاطر وقد تستبد به وتدعه الى متاهات لاحد لها

زكي طليمات

رجل !

في زاوية من زوايا الارض جبل طال طول تعني الفقير وسأم الغني. جبل اشتد اشتداد شهر الصوم على المتكاسلين ، والناس يحذقون التكلف لان الفطرة سلامة

جبل هبّ أملس ضامراً جرداً : رمح ركزه ربٌّ أعياه خلق لا يتزحزحون

كان الجبل سيد اهل الزاوية : يستقبل أعينهم كل صباح فيحدّ من مرماها ، ويعكس عليهم شعاع الشمس فيشترك في اللفح ، ويصد عنهم الزعازع فيهديء ليلهم : مصدر طمأنينة وصاحب غلبة

كان اهل الزاوية لا يرفعون الأبصار الى الجبل إلاّ وأكفهم مفروشة فرق حواجبهم . وان تحيرأ الطرف واقشعر ، فعلى سبيل اللمح : كان الجبل يعزق عزم العين. ولولا هذا الجبل الأملس الصامد المجرد ما كان اهل الزاوية على تلك الحال من الدعة والرقة . . . لا بدّ للناس من شيء يهددهم بالسحق ، من شيء متماسك مع تطاول حتى تلين افئدتهم

كان الجبل مصدر طمأنينة وصاحب غلبة

وكان الشغل الأكال للأذهان : على رأس الجبل بيت منقور ، نقره شيء مجنّح هوى من ناحية السماء ثم زرع فيه عشباً أبيض قصير الورق ، من أكل منه وهو ندٍ في منبته ظفر بالحياة الأبدية ... السماء تستهوي الخلق ابداً ، وتارة تغويهم ، السماء جزء من الكون ، والكون بهرج

والطريق الى ذلك البيت المنقور وعر ، معضل . والتصعيد فيه خدعة من خدع الموت . ولم يقوَ على بلوغ البيت من اهل الزاوية سوى اثنين . وقد عاد احدهما كسيحاً من الاعياء ... هل يقدر رجل على حمل الابدية ؟ وعاد الآخر مكفوفاً ... آه من الشمس تقتل من حيث تحيي : وجهها بنير ويعمي : أضاءت البيت المنقور أي إضاءة حتى إنها أطفأت العين

عاد الكسيح والمكفوف وبين أيديهما الابد . ولم يدرِ أحد من أهل الزاوية أيسخران من الموت ام الموت يسخر بهما

* * *

— « يا رجل لا تصعّد في الجبل »

— « أنا مصعّد فيه يا قوم »

— «أتبغي الأبدية وأنت بشر ؟ أتخرج على سنة الكون ؟ كل ما فيه مقدَّر: الجفاف يترقب النبات ، والليل راصد الشمس ، والموت يحصي على الانسان أنفاسه»

— « الكون مبذول لنا ، ولسنا عبدنوعين الى الكون يعبث بنا ويتحكم في أمرنا . الكون مبذول لنا ، فليسخِّر لنا قيوده العبيد ، لمن يطوِّح النظر الى فوق وكتفه مبسوطة فوق حاجبه . هذا الجبل يكسر طرقي ، وأنا أريد ان أحدّق اليه وأقول له : الآن لا أسارقك النظر ، ولا أخشى لمسك وخطفك ، لأن سرك انتقل اليَّ . أنت تطويه في رأسك وأنا في عروقي أبثه ، أنا أفضلك وأبهرك ، لأنك صاحب السر ، وأما أنا فمختلسه . أنت قبضت على المستحيل وهوَّلتَ به علينا ، وأنا أجعله برجولتي ممكناً »

«ولكن الكسيح والكفوف ، ألا تتعظ بهما ؟ »

« انهما رغبا في الأبدية طمعاً فيها وحدَها . وأما أنا فأطلبها لتتقاد ، لاحسَّ بأني قاهر . هما رغبا فيها للتنعم بالحياة الباقية ، وأنا أطلبها لأسرعها ... كالمرأة تستمتعون بها وتلهَون ، وأما أنا فأطرحها تحت همتي لأشعر بأني أملك شيئاً نابضاً ، شيئاً استطيع ان أنشر فيه من ارادتي وأسلّ منهُ ارادته عوضاً . وإني لا أحسّ برجولتي إلاَّ إذا وجدتُني السلطان القادر على حياة غيري . حياتي لا أملكها لأني عبدها تسيّرني ولا اجرؤ على الانتقام منها ... لا يقتل نفسه الاَّ من افتقد حياته فانفلت من ضغطها ، ولست كذلك ، حياتي بين يديّ ولكنهما لا تسمانها »

تمهّل الرجل ليتصفح القوم ثم واصل : « أنا مصمّد في الجبل لأغتصب عمري من براثن العدم . فأعود سيد نفسي : إذا ضايقتني أديتها ، سيد جسمي: أفنيه متى شاء ، سيد روحي أميّلها على هواي . . . الروح التي حرتم في شأنها سأقبض على أطرافها وأجعل لها من عظامي إطاراً يختنقها . أنا مصمّد »

قال الرجل مقاله ، فضحك الكسيح وبكى المكفوف من خلفه ، كأن أحدهما يتمّم اخاه . ثم حمل المكفوف الكسيح وأخذا يتحسسان — هذا بعينه وذاك بقدمه — نعيم الفناء : الارض وما عليها

عاد الرجل الى مقاله : « أنا مصمّد ، وسألقي اليكم كل يوم بحجر لأعلمكم

بأبي سالم ، حتى ارجع اليكم فتلتفتوا حولي وتسألوني أن أفتك بهذا الكسيح وبهذا المكفوف لانهما طالما ما فتهما خطره . أنا مصمّد . »

هدأ الرجل . ومن بين الصفوف برزت فتاة وقالت : « لا تذهب الى البيت المنقور »

أخذت الرجل نحة وهو يقول : « ياحبيبتي . . . »

تطلعت الفتاة اليه قلقة البصر حيرى السمع . فأكّد الرجل : « نعم ، حبيبتي . الآن فقط أناديك : ياحبيبتي . ومن قبل كتمتُ مايشغل صدري ، لاني لو نشرتحبي بين يديك لتعطّل إحساسُك الدفين به »

ثبت القلق في البصر وامتدت الحيرة في السمع . فزاد الرجل : « الروضة التي عن يمينك تجلسين اليها تنقلين البصر ، فيزود ، فينساب سحر مستتر تحت الجفنين فيغليهما ويطبقهما ، ثم تقبل صاحبة من مراجيك فتصيح : ما أجل الروضة ! فيزعج السحر ، ويفر من تحت الجفنين ، فينفرجان ، فترى عينك ماترآه عين صاحبتك : تلمس حواسُّك الاشياء ، فتصحو ، فتبطل الخلوة بالوهم الخاطر .. الحب والجمال كالبريق الذي في الياقوت الاصفر الرقيق : ماء مستفيض في تعاريج الجوهرة ، فوق الوصف ودون الحس . . . الحب والجمال وماء الجواهر لا تفعل فعلها الاّ إذا رقدت وراء حجاب شفاف . . . يا حبيبتي »

دنا الرجل من الفتاة التي برزت من بين الصفوف ، فارتفع القوم . فقالت الفتاة : « لاتذهب الى البيت المنقور »

ضمها الرجل اليه : « اليوم أناديك : يا حبيبتي ، لأني منصرف عنك . لحظة يشرم اللحم من اللحم يحسن بالالفاظ ان تنضح دماً . وهل يضور بالدم غير الالفاظ المقدسة ؟ »

فك الرجل الفتاة من الضمة : « وما أحراني الآن بأن أناديك : ياحبيبتي . . . اني بباب المعبد . سأدخله في الوقت الذي اختاره ، سأدخل معبد الزمن المنزّه عن خطر الاحتمال ، فاختطف من دعائمه حقيقة حرفين متلاحمين : الحاء والباء ، لأن الحب نَفَس متصل . اليوم لي الحق ان ألفظ الحرفين لأني قريب الاتحاد بالقوة الراسخة . . . آه يضحكني البشر متى يخرجوا حروفاً وضعت لغير حلقهم . البشر تق الزوال ، والحب حابس العابر في المقيم . حابس الزمن الدائر في دفة قلب . »

قالت الفتاة التي برزت من بين الصفوف : « لا تذهب الى البيت المنقور . »

فتدفق الرجل : «أتخشين ان تشغلني الابدية عنك ؟ لا أهواها ولا اشتهيها، إنما أريد أن أذلها . أنت تغارين منها لانك تحسين ما تكون هبتها لي . سأهب لي سرّها » ، ويشق عليك ان ينافس سرّك الذائع في صدري سرٌّ داخل . ثم تحسين أن الابدية شيء يعاتبك ، شيء يمنح السعادة . »

ثم جعل الرجل يقطّر كلامه : « لاتغاري يا حبيبتي. سأجعل الابدية سلماً اليك . فأجلس إزاءك ندًّا الى ندّ : انت امرأة تبسط الدنيا لحبيبها فيسع الأشياء كلها ولا يسعهُ شيء ، وأنا رجل قد نزع قدمه من ورطة الأرض ... كفّي عن منعي »

همهمت الفتاة . « ياحبيبي ، لا تذهب الى البيت المنقور . »

***

وذات يوم لم يسقط حجر . فندّد القوم بالرجل ثم سبوه . . . لِمَ يحاول الفوق عليهم ثم يكبو ؟

وفي الليل حلم المكفوف انهُ رسّام والكسيح انهُ رقّاص... الشماتة فتّانة !

ثم مرضت فتاة

وذات صباح هبط الرجل على القوم سالمًا. فالتف القوم حوله :

— « أنت ؟ حيّ ؟ هل أكلت من العشب ! »

— « عني الطريق »

— « ولمَ امسكت عن القاء الحجر ؟ »

— « إلى من ألقي بالحجر ؟ لا ترقبوا الشيء من عل ، تثبوا في جوف الارض ، يا بشر ! عني ! الطريق ! »

دخل الرجل بيت الفتاة التي برزت من بين الصفوف ثم مرضت

والفتاة لم تكن في البيت : قتلها الحجر الذي لم يسقط

خرج الرجل الى الجبل ، وصعّد فيه يقعد الى البيت المنقور يحاسبه

ولما كان ذات صباح سقط الرجل من الجبل ميتًا ... قتل الرب نفسه ، والذي قتلهُ بَشَر